

أدب الأطفال في الجزائر الواقع والآفاق

أ. غنية دومان
جامعة باتنة

الملخص

عرف العالم العربي في عصرنا الحاضر اهتماما خاصا بأدب الأطفال حيث تمت ترجمة الكثير من المؤلفات الأوربية، وصدرت الكثير من الكتابات والمؤلفات المحلية، بالإضافة إلى ظهور فنون كثيرة كمسرح الطفل، والمجلات المصورة، والكتب المتنوعة، والجزائر شأنها شأن مثيلاتها من الدول العربية عرفت هي أيضا في العصر الحديث اهتماما خاصا بأدب الطفل.

ونظرا لأهمية هذا اللون من الأدب وخاصة في هذه الأيام التي أصبحت فيها حركة الكتابة الأدبية بشكل عام، وكتابة أدب الأطفال بشكل خاص، حركة نشطة، وأخذ الكثير من الكتاب والأدباء والمهتمين والمبتدئين والهواة، يكتبون للأطفال في موضوعات مختلفة، القصة والمسرحية والشعر الأناشيد، وأخذت المطابع ودور النشر تطبع كل ما يصلها على أنه من أدب الأطفال، في ظل كل هذا لم تظهر دراسة أدبية نقدية جادة جامعة لأدب الطفل وتطوره، تجمع بين تناياها صورا وألوانا من أدب الطفل، يمكن الرجوع إليها كدراسة مركزة تفي بالغرض في مجال أدب الطفولة.

Summary

Children's literature has gained in importance across the Arab world recently; plenty of European books have been translated, new local books have been published, in addition to the emergence of children's theatre, magazines and different pieces of work. And Algeria is not unique in that respect.

Due to the importance of this genre nowadays, which is going through a new wave of literary creation, many writers, professionals, amateurs, and beginners are writing for the young public on lots of subjects; stories, theatre, poetry, and songs. Publishers are also interested in printing every kind of children's literature.

All things considered, no serious literary study on children's literature and its development have been done, one that encompasses images and colors of children's books, and can be considered as a condensed global work on that genre.

مقدمة

الأدب بوجه عام تصوير أو تعبير عن الحياة والفكر والوجدان من خلال بُنْيَات لغوية، إنه رسالة تقدم لخدمة الإنسانية، وأدب الأطفال هو جزء من ذلك الأدب، إلا أنه موجه إلى فئة معينة، وهم الأطفال الذين يختلفون عن الكبار من حيث القدرات العقلية، والإدراكية، والخبرة، والتجربة.

من حق أبنائنا في الجزائر أن يحظوا بثقافة متكاملة ماديا ومعنويا، وبما أن الأدب هو الرافد الذي يغذي هذين الجانبين، فهو يعكس وينعكس من خلال مظاهر الحياة المادية وسلوك الإنسان، وتظهر من خلاله سمات المجتمع بما تحمله من قيم وأفكار ومبادئ واتجاهات.

وإذا كان الأدب بهذه الدرجة من الأهمية، فإنه يصبح أكثر أهمية في حياة الأطفال، حيث يدخل ضمن مكونات عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية لهم، ويساعدهم في تشكيل شخصياتهم، ويكسبهم الخبرات المتنوعة، التي تؤهلهم للتعامل مع معطيات الحياة ومواقفها، وفوق كل ذلك يربي وجدانهم وينمي الحس الجمالي لديهم.

– مشكلة الدراسة

إن المتتبع الجيد لمصادر أدب الأطفال ومضامينه ووسائله في مجتمعنا الجزائري، يجد ضعفا شديدا وقصورا كبيرا، وهوة واسعة بين أدب الكبار وأدب الأطفال، والتي نشأت نتيجة عدم الالتفات إلى أهمية أدب الأطفال وغياب النظرة التربوية لهذا الأدب، إضافة إلى إشكالية الكتابة الأدبية للطفل في بنيتها ومضمونها، في ظل فقدانه للقدرة على الإحساس الجمالي والاستثارة الوجدانية، نتيجة التحولات الاجتماعية والقيمية والتطور التكنولوجي الحاصل.

– واقع أدب الطفل في الجزائر

إن الطفولة صانعة المستقبل، ومن أهم لبنات بنائه، يقوى بها إن قويت، ويهن إن كانت غشاء، ومستقبل أية أمة مرهون بطريقة تربية أبنائها، وأدب الأطفال أحد الركائز الأساسية في بناء شخصياتهم؛ ولذا اتجهت الأمم للعناية بأدب الأطفال واعتباره مؤشرا لخصوبة العملية التربوية وسلامة مسيرتها.

إن ثمة قضايا مطروحة على ساحة أدب الطفل العربي، أبرزها تثبيت وجوده وتأسيس مفاهيمه، وضرورة تغيير النظرة الأقل للطفل ولأدب الطفل كذلك، ثم يلي ذلك إجراء البحوث العلمية حول إشكالية الكتابة الأدبية للطفل في بنيتها ومضمونها، الأمر الذي يصل بنا في سلامة ويقظة إلى عقل الطفل ووجدانه لتنبؤ المحتوى الذي نهدف إليه عبر المنهج المدرسي من ناحية ومن خلال التذوق الحر للأنواع الأدبية من ناحية أخرى⁽²⁾.

وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها الهيئات العالمية والوطنية لوضع برنامج متطور للعناية بالطفل العربي، مثل جهود منظمة (اليونيسكو) أو (اليونيسيف)، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، والمجلس العربي للطفولة والتنمية، ساعية إلى إعادة الثقافة الوطنية لثقافة الطفل بمعظم الدول العربية، وبناء الإنسان العربي، لذلك بدأت بقاعدة ذلك البناء ألا وهو الطفل، إلا أن الكبار من الراشدين لا يزالون يجهلون مفهوم " الثقافة في معانيها الشائكة المتعددة. ومازلنا نقدم للأطفال نتاج هذا المفهوم المركب من النتاج المعرفي العالمي والتاريخي والإعلامي على أنه ثقافة أطفال تارة، وأدب الأطفال تارة أخرى"³.

² أحمد زلط، أدب الأطفال: أصوله، مفاهيمه، رواده، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1990م، ص 167

³ سمر الفيصل، "أدب الأطفال"، مجلة الشؤون العربية، جامعة الدول العربية، تونس، 1985م. عن أحمد زلط، أدب الطفولة، ص 167

إن البيئة الجزائرية مازالت ترى في أدب الطفل ضرباً من اللهو، تعامله على أنه أدنى مستوى من الأدب المكتوب للكبار. وإذا جئنا للحديث عن واقع الكتابة الأدبية للطفل الجزائري، فهي أكثر فقراً من نظيراتها في الدول المجاورة، كتونس والمغرب، وأبعد بأشواط مخجلة عن الجهود في المشرق خصوصاً سوريا والكويت والإمارات، وإن أي محاولات لتبرير هذا التخلف المشين لن تكون مقنعة البتة، خصوصاً بعد أن تجرأ المختصون في وزارة التعليم العالي على إلغاء مقياس أدب الأطفال من مقررات الأدب⁴.

إن ما أشار إليه الناقد أنفاً يشكل صعوبة تعترض ازدهار أدب الأطفال في الجزائر، وهي تكوين الباحثين والمختصين في هذا المجال، وبالوعي التام للكتابة للطفولة، ودراية بخصائص النمو الانفعالي اللغوي والنفسي للطفل، وهكذا يمكن وضع حجر الأساس لتأصيل أدب الأطفال، يقول توفيق عزوز: "على الرغم من شيوع اصطلاح أدب الأطفال، وقبول هذا الاصطلاح في مجالات البحث العلمي، وفي دور المعارف والمراجع الأساسية، إلا أنه لا يمكن أن نفصل هذا الأدب المتخصص والموجه للأطفال عما يسمى بالأدب العام أو أدب الكبار، وإن هذا الأدب العام يبقى مصدراً غنياً لمواد وكتابات تم اختيارها للأطفال، وأية دراسة لتاريخ الأدب تؤيد هذه الحقيقة، فكثير من الكتابات التي لم توضع أصلاً للصغار، قد أقبل عليها الأطفال لأنها وجدت هوى في نفوسهم، ولأن هذه الكتابات استطاعت أن ترضي حاجاتهم ورغباتهم، وعلى مختلف مناحي نموهم"⁵.

⁴ عادل محلو، دراسات في أدب الأطفال، رابطة الفكر والإبداع بالوادي، ص 07
⁵ توفيق عزوز، "أدب الأطفال"، جريدة الرأي الأردنية، الرأي/4/1979م. عن أحمد زلط، أدب الأطفال، ص 168

ويضيف الباحث الأردني روكس بن زايد العزيمي في رؤية عصرية لهذا اللون الأدبي بقوله: " ولا ترانا مبالغين إذا أسمينا القرن العشرين عصر المرأة والطفل، كما هو عصر الذرة وريادة الفضاء، لأن الاهتمام بالطفل غير مفاهيم التربية ... بل غير مفاهيم الحياة كلها، وقد احتفى أدبنا بالطفل يوم اعتبر عالم الطفل عالما مقدسا، فاتخذ الأدباء من الطفل منطلقا لبث آرائهم السياسية والاجتماعية، وجعلوا الطفل رمزا للشعوب المستعبدة والطامحة إلى الاستقلال، ثم اتخذوه رمزا للحرية، ينشأ كما تنشأ، وينمو كما تنمو"⁶.

إن مصطلح أدب الأطفال ذو دلالة مستحدثة، فلم يتبلور في أدبنا الجزائري الحديث سواء من حيث الكم أم من حيث الكيف، إلا في العقد الأخير، على الرغم من أن الإرهاصات الأولى لهذا اللون تعود إلى سنوات ما بعد الاستقلال، وكل حديث عن هذا اللون الأدبي سابق لأوانه، وما يقال يظل يدور في فراغ، إذ ليس هناك دار نشر خاصة بالطفل، ولا مؤلفون مختصون في الكتابة للبراعم... وقد ظهرت مبادرات تدعو إلى تأسيس قسم خاص بمنشورات الأطفال في (المؤسسة الوطنية للكتاب) لكن ذلك الأمل لم يتحقق بسبب ما افتعله المسؤولون عن النشر من متاعب مادية ومصاعب تجارية!!

ومن هنا يكون الحديث عن أدب الأطفال في الجزائر أو الكتابة فيه من قبيل المغامرة، لكن ومع كل المثبطات التي كشفنا عنها، فقد انفلتت بعض الأعمال من البيروقراطية⁷، وخرجت إلى النور من أجل سعادة الأطفال وتنقيفهم وتهذيبهم، في حلة جديدة تواكب العصر رغم ما تحمله من نقائص. ومن أهم الأدباء الذين كانت لهم هذه المبادرات: الجيلالي خلاص، محمد دحو، محمد الغماري، عبد العزيز

⁶ (روكس العزيمي، "الطفل في الأدب العربي"، بحث لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، ط وزارة الثقافة والإعلام، ص 777، الجزائر، 1975م

⁷ محمد مرتاض، قضايا أدب الأطفال، دراسة تاريخية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص 56

بوشفيرات، محمد صالح ناصر، محمد سراج، محمد مصطفى، الطاهر وطار،
واسيني الاعرج، عبد الحميد بن هدوقة.... وقد تبني هؤلاء الأدباء نوعين من الكتابة
للأطفال:

النوع الأول: هو تبسيط مؤلفات الكبار وإعادة صياغتها بلغة سهلة وتبسيط
ما بها من أفكار لتتناسب مدارك الصغار، كما حدث في إعادة صياغة
بعض قصص كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وقصص القرآن الكريم^(*)
ويتطلب هذا النوع من الكتابة عدة أمور منها⁸:

1. الفهم الجيد للعمل الأدبي الذي يقوم الكاتب بتبسيطه.
2. ضرورة المحافظة عند إعادة صياغة العمل على القيم الفنية وروح العمل
كما ورد في صياغته الأصلية.
3. مراعاة سهولة اللغة، وسلاسة الأسلوب، وتبسيط الأفكار لتتناسب عمر
الأطفال المقدم لهم العمل الأدبي.

إن إعادة صياغة عمل أدبي للأطفال ليس بالأمر الهين، ويصور أحد
الباحثين هذا الأمر بقوله: " إن على كاتب الأطفال أن يترجم أفكار شخص آخر
وأحاسيسه ورؤاه على أساس من أفكار قوم آخرين وأحاسيسهم ورؤاهم في إطار
من فكره هو وأحاسيسه ورؤاه، ليخرج من هذا أسلوباً يدهش القارئ العادي،
بسهولة وبساطته، ويبدو كأنما تم بأيسر جهد وأقل عناء"⁹.

النوع الثاني: الكتابة في ظل الإبداع الفني والتي تكون من خلق الكاتب وأفكاره،
كالأناشيد والقصائد، أو القصص والحكايات، أو المقالات، أو المسرحيات
إلخ....

* من بين الأدباء الذين أعادوا كتابة القصص القرآني د. محمد ناصر في سلسلة "القصص الحق للنشر
الإسلامي" محمد علي الرديني، سلسلة قصص الأنبياء للأطفال.

⁸ أحمد حسن حنورة، أدب الأطفال، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط1، 1989م، ص 57.

⁹ أحمد نجيب، " فن الكتابة للأطفال" عن : أحمد حسن حنورة، " أدب الأطفال"، ص 58

– إشكالية التوافق بين المضمون والشكل

ربما كانت قضية "المضمون" في أدب الطفل الجزائري هي المحور الذي ينطلق منه توجهنا لتمهيد الطريق الصحيح أمام أجيال الناشئة، ونحن نؤمن بأن الأطفال في الجزائر لا يخضعون في معظم الأحوال لتربية متكاملة، ومتوازنة، فهم يعانون من الجمود والحشو وكثرة التعديل في المناهج الدراسية خاصة في الفترة الأخيرة، إضافة إلى إهمال الجانب الوجداني في تربية الطفل، مع القصور والتباين في أساليب التثقيف الذاتي والخارجي، والتحولت المتباينة في قيم المجتمع، وصورة القدوة المشوهة والمتغيرة، ومن هنا يجب أن ينطلق أدب الطفل من قاعدة صحيحة سليمة.

وبما أن مضمون الأدب هو العمود الفقري الذي يبعث فيه الحركة والحياة، ويجب أن يسير في خط مواز مع (الشكل) المعبر عنه باللغة والقواعد والأساليب¹⁰، فليس هناك شك في أن هدف كتاب أدبيات الأطفال هو تقديم منظومة متكاملة من القيم، غير أن هناك اختلافا قيميا في العالم كله، فبعض القيم الأجنبية صالح للطفل الجزائري، وبعضها غير صالح، إضافة إلى بعض القيم النابعة من المجتمع والعلاقات العامة فيه، وهكذا عمل كتاب الطفولة على ترسيخ قيم المضمون الجيد وتعميقها في عقول الأطفال وقلوبهم، بأسلوب فني يتلاءم ومداركهم.

إن الغزوة الإعلامية الأجنبية ومخاطرها الوافدة بمثابة خطر داهم يتهدد أجيالنا، كما أن الثقافة الغازية تلاحق أبناءنا في عقر بيوتهم بواسطة سلبات الدوريات المترجمة¹¹، أو شبكة الإنترنت التي يتعامل معها الأطفال لساعات طويلة خلال اليوم، وهذا ما يؤسس لتكوين شخصية مزورة للطفل الجزائري.

¹⁰ أحمد زلط ، أدب الأطفال، أصوله ومفاهيمه ورواده، ص 172
¹¹ صالح خرفي، "ثقافة الأطفال"، جريدة الرأي الأردنية، ع 7، ديسمبر 1979م

ويفرق البعض بين العمل الأدبي للطفل ومضمونه، ويرى أن مضمون العمل هو مجمل الأفكار أو الآراء والعواطف والمفاهيم التي انبثقت منها، وتؤثر في الطفل تأثيرا معينا، أيا كان مداه، أما موضوع العمل الأدبي فيقصد به الأحداث ذاتها أو العلاقات أو المشاكل التي تحدد ملامحه ونوعه¹².
ولهذه التفرقة بين الموضوع والمضمون أهمية بالغة في الكتابة للطفل للأسباب التالية:

• إن قوة تناول الأديب للعمل الأدبي تبرز في المضمون الذي يعطيه أهمية خاصة، بمعنى أن الأديب قد يتناول موضوعا بسيطا، لكنه يعطيه مضمونا قويا، على عكس أديب آخر الذي قد يتناول موضوعا هاما، ولكنه يعطيه مضمونا تافها.

• على الأديب أن يحيط بالموضوع سواء من خلال العلم به، أو عن طريق التجربة أو الاطلاع، أما المضمون فيتطلب - إلى جانب المستوى الفكري والعلمي للأديب - قدرا كبيرا من الموهبة والحنكة في استغلال الأحداث* التي يتناولها لخدمة المضمون الذي اتجه إليه سواء بفكره أو بوجدانه¹³.

• تظهر أهمية التفرقة بين الموضوع والمضمون كذلك في مجال النقد الأدبي، لأن الكاتب أو الأديب عندما يتناول موضوعا ما بطريقة موضوعية يبت خلالها علمه بالموضوع وتفهمه لحيثياته بأسلوب أدبي، في حين أنه ينسج ويبعد للتعبير في (المضمون) متأثرا بشخصيته وذاتيته، وبما انعكس على مشاعره الخاصة من أثر لهذا الموضوع.

¹² حسني نصار، صور ودراسات في أدب القصة، عن محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، ط1، 2004م، ص 124 بتصريف
* نقصد بالأحداث هناك داخل البناء القصصي أو الروائي للطفل، لأنها أحب الألوان الأدبية وأهمها على ساحة أدب الطفل.

¹³ محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، ص 125

- إن قيمة المضمون تختلف من الناحية الذاتية الخاصة من أديب لآخر، وذلك تبعاً للمزاج الخاص والموهبة، وطريقة أو أسلوب الكتابة.
- لا يشكل الموضوع في العمل الأدبي لمحة عابرة أو سريعة، لأنه يظل في تطور مستمر من خلال المضمون، ويظل ينبض في البناء الشكلي للعمل الأدبي، وكلما اتخذ الموضوع طريقاً مقبولاً ومنطقياً في تطوره كان العمل الأدبي أكثر اتفاقاً وثباتاً.

وإذا كانت اللغة بوضعها النسيج الذي يشكل قوام أي عمل أدبي¹⁴، فإن كتاب الطفولة في الجزائر بحاجة ضرورية للوقوف عند نتائج البحوث اللغوية المعاصرة فيما يتعلق بالنمو اللغوي والقاموس (المعجم) اللغوي للطفل، وعلم النفس اللغوي بحقائقه التي تدور حول الفهم والإدراك والإدكاء، والاكْتساب، والميل، والتفكير، وغيرها من الحقائق المتصلة بعالم الطفولة في أطوارها المختلفة.

إن اللغة في أحد مفاهيمها مهارة مكتسبة، وفي ضوء ذلك فهذه المهارة في حاجة إلى تنمية مضطردة، وإذا كان كُتّاب الطفولة مطالبون بمراعاة قدرة حصيلة الطفل اللغوية، فإنهم مطالبون كذلك بالارتقاء بالطفل إلى مستويات لغوية أكثر، لأنها تخاطب عقل الطفل وإدراكه، ويجب مراعاة النمو العقلي والجسمي والنفسي للطفل، فكل عمل أدبي مفرداته وتراكيبه اللغوية الخاصة به¹⁵، كما أن لكل طور من أطوار مرحلة الطفولة القاموس اللغوي الخاص به والتراكيب اللغوية الخاصة بها كذلك، ولا نستطيع وصف اللغة التي استعملها كتاب الطفولة بأنها لغة ملائمة للأطفال كي يفهمونها ويقدرونها بسبب الخطأ المركب الذي يقع فيه معظم الكتاب، وهي سهولة

¹⁴ أحمد زلط، أدب الأطفال، أصوله ومفاهيمه ورواده، ص 169

¹⁵ المصدر السابق

المبالغة في التقريرية أو الخطابية المباشرة والمقتربة من النثر، أو الصعوبة اللغوية بما تحمله اللغة من ألفاظ غير مستعملة أو غريبة، أو بناء الجمل الطويلة والمركبة، ونعد ذلك من تعقيد الاستعمال اللغوي داخل النص الأدبي من ناحية، وتضمين الرمز المبالغ من ناحية ثانية.

إن خبرات الأطفال باللغة ومهاراتهم فيها ورصيدهم من كلماتها وجملها مازال قليلا بعد، وذلك يقتضي ترك الكلمات غير المألوفة إلى الكلمات المألوفة، والأسلوب الملتوي الخفي إلى الأسلوب السلس الواضح "فلا شيء يزري بقيمة المعنى وينقص من جماله أكثر مما يكتنفه من ألفاظ غريبة وعبارات غامضة معقدة، تحوّل بينه وبين القلوب والأفهام"¹⁶.

إن مجرد البعد عن التعقيد لا يكفي في العمل الأدبي، إذ يتطلب ذلك تجاوز التعقيد إلى الجمال والجاذبية، وإجادة كل فنيات الشكل الأدبي، وهذا ما يفتقده أدب الطفل في الجزائر، كاختيار البحر الشعري المناسب، والقافية المناسبة، والكلمات والتعبيرات الموحية، وتنوع الأسلوب بين الحكيم أو السرد والحوار، والمساقاة بين الأسلوب والمعنى، وبين الأسلوب وحال المخاطب، فلكل مقام مقال.

أما قضية الرمز في أدب الأطفال، فستظل ملازمة لهذا اللون الأدبي شريطة أن يكون الرمز في الحكاية والمنظومة الشعرية من السهولة بحيث يمكن التقاطه بسرعة، لأن اتباع الرمز في النص الأدبي الموجه للطفل يحفز خياله بشكل صحيح، فلا يمكننا أن نمحو الرمز في الأدب باعتباره ما يؤول إليه من ناحية وقدرته على تنمية خيال الناشئة من ناحية أخرى، الصعوبة الوحيدة في قضية الرمز في أدب الأطفال هو مبالغة الكتاب في استعماله بحيث يستغل على

¹⁶ أحمد حسني حنورة، أدب الأطفال، ص 60

الأفهام، خاصة لدى كتاب أدب الطفل في الجزائر، لأنهم يوظفون رموز الأدب الغربي، ويفتقدون للقدرة على الالتقاط من الأدب الشعبي، وإعادة صياغته بما يناسب الطفل، إن الأساطير الشعبية تكون زادا كثيرا ورافدا عظيما للرمز حتى اعتبرها بعضهم تدور في فلك الرمز¹⁷.

كما أن الموروث الشعبي لدى مجتمعنا الجزائري يحمل كثيرا من المآسي والنكبات وهو صدى لما تعايه الأمة العربية، ممسوخ الخيال، مريض التصور بعد أن شوهته عهود الظلم والتدهور، ويكون صورة صادقة لما في نفوس الكبار المقهورة، فتكون حكاياتهم ممزوجة بالألم والعذاب، وتنفيسا وإسقاطا رمزيا، وهكذا ينفذ ذلك كله ويتسرب من نهر الأدب الشعبي للكبار إلى الجدول الصغير من أدب الأطفال، فأكثر ما يحكى لهم قصص تعبر عن عصور التخلف، والتدهور، والاحتلال في صور التراث الشعبي، ترمز إلى الظلم والاستبداد، فتبعث في قلوب أطفالنا الخوف والقهر وعدم الأمان.

لهذا كان لابد من إعادة النظر في حكايات الموروث الشعبي حتى وإن اتخذت كمصدر لأدب الطفل، واختيار ما عساه يحقق الهدف التربوي من الجوانب النفسية والذهنية، والمعرفية، فمن الظلم أن نطالب الطفل بالانطلاق إلى الحياة، ونحن نقطر في طفولته ما يبعث في النفس الاضطراب¹⁸.

كما أن المغالاة في الرمز يحول دون انتقال الطفل بيسر من الواقع المتخيل إلى الواقع الواقعي، ومما يفوق الطبيعي إلى الطبيعي، فنخلق جيلا إلى التوهم أقرب، فإذا أسرفنا في دفع الأطفال وتلقيمهم بالأجواء العجيبة

¹⁷ محمد مرتاض، من قضايا أدب الطفل، ص 94

¹⁸ أحمد زعب، دراسات في أدب الأطفال، إصدارات رابطة الفكر والابداع بالوادي، ص 52

الأسطورية والرمزية يصعب عليهم لاحقا التعامل مع الواقع بواقعية، فكأننا نشنتهم على طرف ثم نطالبهم بالانتقال إلى طرف نقيض، ونعجب أنهم لا ينتقلون بسهولة¹⁹.

والطفولة حين تكون امتدادا للذات لا تقتزن بالحاضر فقط، ولكنها تمثل الماضي بنفس القوة التي تمثل فيها المستقبل، فالكبار كانوا صغارا، والصغار سيغدون كبارا، وما يلحق بهذا أن يتحول الماضي والمستقبل إلى ملجأ أو مخبأ يهرب إليه المرء فتكون الطفولة - الرمز - زجاجة شفافة لا لذاتها إنما توجد باعتبار ما تومئ إليه²⁰.

- قصص الأطفال في الجزائر

القصة من أحب الألوان الأدبية للقراء، ومن أقربها إلى نفوسهم، وتعتبر من خير الوسائط* وأهم الوسائل لتدريب الأطفال على التعبير لأنهم يميلون بفطرتهم إليها، ولا يملون سماعها أو قراءتها في أي وقت، إذا تضمنت الشروط المناسبة من حيث: الإثارة، والتشويق، أو الخيال والطرافة، وملاءمة الفكر، واللغة والمغزى الخلفي، أو الفكري، أو الاجتماعي، والطول والقصر، وسن الطفل، وإذا اكتملت مثل تلك العناصر تصبح لونا أدبيا شيقا وهادفا²¹.

¹⁹ ديمتري سليم بولس، " شبكة بلاغ " حكايات للأطفال العرب، مرجع سابق، ص 54
²⁰ عبد الجبار البصري، " الطفولة في الشعر العراقي الحديث" بحث مقدم لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، ج1، ص 629، ط وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر، 1975م
* الوسيط : هو عنصر أساسي من عناصر العملية التي يتم بموجبها الاتصال بالأطفال، وبدون الوسيط لا تتم تلك العملية، والكاتب الناجح هو الذي يضع في اعتباره وهو يكتب للأطفال الوسيط الذي سيتم من خلاله توصيل أفكاره لهم، لأن طبيعة الوسيط تحدد بطريقة ما - طريقة صياغته وبلورة الفكرة - وتعدد الوسائل الخاصة بأدب الأطفال فقد يكون الوسيط مجلة أو كتابا أو صحيفة أو مسرحية، أو برنامجا إذاعيا أو تلفزيونيا، أو قد يكون الوسيط الراوي أو الحكواتي.

²¹ سميح أبو مغلي، مصطفى محمد الفار، عبد الحافظ محمد سلامة، دراسات في أدب الأطفال، دار الفكر، ط2، الأردن، 1993م، ص 57

وفي الجزائر كان لاتصال الأدب الجزائري بنظيره العربي في المشرق أثره الواضح، كما استطاع الكتاب الجزائريون الاطلاع على الآداب الغربية المترجمة إلى العربية، خصوصا في مجال القصة المكتوبة للأطفال، وكان من نتائج هذا الاتصال انتشار القصص الغربية المترجمة إلى العربية في الجزائر خصوصا قصص كامل الكيلاني التي ترجمها من الآداب العالمية المختلفة²².

وهكذا ارتاد مجال القصة المترجمة عدد كبير من الكتاب، ومارسوا عملية الترجمة بأنفسهم فراحوا ينتقون الأعمال القصصية الطفالية الأجنبية وينقلونها إلى العربية، ومن أمثلة هذه القصص المترجمة (سلسلة الفك) التي صدرت عن المؤسسة الوطنية للكتاب، والتي ألفها "رومان سيمون" Roman Simon وترجمها إلى العربية أحمد بوهلال، وصدرت عن هذه السلسلة القصص التالية: (الدلفين الصغير يكتشف البحر)، (الوعل الصغير في الجبل)، (الغزالة الصغيرة وحيوانات السهوب)، (الفك الصغير وحيوانات الصحراء)، (القدس الصغير في الوادي)، (العنزة الصغيرة محبة الاطلاع)²³.

كما ترجم السعيد دراجي قصة (الحاير يذهب بذور الهندباد) لإيفان يومو Ivan youmo التي نشرتها كذلك المؤسسة الوطنية للكتاب ضمن سلسلة "أغيلاس"²⁴، إضافة إلى السلسلة القصصية (أب كستور) التي تضم مجموعة من القصص منها (المعزة والجديان)، و(الأصحاب الأخيار)، (حيوانات تبحث عن الصيف)، (قصة القرد)، (أحسننت يا سلحفاة) التي نشرتها المؤسسة الوطنية

²² محمد العيد جلولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر، دراسة تاريخية فنية في فنونه وموضوعاته، دار هومة للطبع، الجزائر، 2003م

²³ عبد الرزاق بن سبع، قصص الأطفال في المغرب العربي، دراسة تأصيلية تطبيقية، دكتوراه مخطوط، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، 2003-2004م.

²⁴ المرجع نفسه

للكتاب سنة 1972م، حيث اعتبرها البعض البداية الحقيقية لظهور أولى القصص المنشورة في الجزائر.

وفي ظل العقبات - التي ذكرنا آنفا- أخذ أدب الأطفال في الجزائر، وخاصة القصة الطفلية تمضي قدما نحو الأفضل، وراح كُتَّابها يرسمون الطريق الأفضل، ويؤسسون معالمها باعتبارها واقدا جديدا لا تزال تبحث لها عن مكان ضمن الفنون الأخرى، حتى وإن لم تتوفر لها القيم الفنية والجمالية والتربوية بداية.

وشينا فشيئا أخذ هؤلاء الكتاب يستلهمون ميول الأطفال واحتياجاتهم فيما يكتبون، وهكذا بدأت قصة الأطفال في الجزائر تبرز وترتقي إلى الأفضل لأنها لم تكن تصدر لتكون قصصا مدرسية وحكايات تقرأ للتسلية فحسب، بل أصبحت قصصا ذات مغزى أخلاقي وديني واجتماعي، تكشف للطفل جمال الفضيلة وتتفره من قبيح الرذائل، وتوصل في جناحها العواطف القومية والدينية، والقيم الاجتماعية في صياغة سهلة، وأسلوب ممتع يناسب السن العقلي واللغوي للأطفال الذين عمدوا إلى تطوير القصة في أدب الطفل الجزائري، ومن بين هؤلاء الكتاب محمد صالح ناصر الذي ألف أدبا قاصدا للأطفال باللغة العربية، والمتمثل في خمسة سلاسل قصصية: "القصص الحق للنشء الإسلامي"، "الأنييس للأطفال"، "المربي للفتيان"، "المربي للأطفال"، "سلسلة أدب الفتوة"²⁵، وهو يتميز بالسلاسة في الأسلوب واليسر في اللغة، وانتقائه الموضوعات والأفكار، بما يشبع حاجات الأطفال ودوافعهم.

كما استحدثت في لغة القصة ما يسميه بـ "قاموس المفردات الغريبة"²⁶ وهو قاموس في آخر صفحة في القصة، يشرح من خلاله المفردات الصعبة، التي

²⁵ دومان غنية. أدب الأطفال عند محمد صالح ناصر. رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب

واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة 2007-2008م، ص 135

²⁶ المرجع نفسه، ص 135

يظهرها في المتن القصصي بخط مخالف، مما يحفز الفهم المبدئي للكلمة عند الطفل، إضافة إلى تقسيم القصة إلى عناصر من أجل كسر أسلوب الحكوي والسرد الممل.

لقد دارت كتابات محمد ناصر القصصية للأطفال حول المحاور التالية :

- ترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوب الناشئة.
- ربطهم بثقافة القرآن الكريم والسنة الشريفة.
- تربيتهم تربية أخلاقية إسلامية عالية.
- زرع الأخوة الإسلامية بينهم.
- تنمية الحصيلة اللغوية العربية لديهم.
- تقوية ملكة التفكير لديهم²⁷.

وفي ظل هذه التطورات التي لحقت بقصة الأطفال في الجزائر، ودور الكتاب المعاصرين الذين أخذوا يلتقطون موضوعاتهم وأفكارهم سواء من واقع المجتمع، ونبض العصر، وتفاعلاته أو من خلال ترجمة القصة الغربية، أو محاكاة التراث الشعبي والأدب العربي في المشرق، فقد أصبح لدينا تنوع قصصي تزخر به مكتبة الطفل الجزائري، والذي يصنفه عبد الرزاق بن سبع على النحو التالي²⁸:

1. قصص لكتاب جزائريين على اختلاف مستوياتهم الفكرية والأدبية.
2. قصص لكتاب غير جزائريين غير أنهم أقاموا مدة طويلة في الجزائر، وفيها كتبوا ونشروا قصصا للأطفال أمثال؛ محمد علي الرديني الذي كتب (سلسلة قصص الأنبياء للأطفال) طبع ونشر شركة الشهاب، وخالد أبو

²⁷ محمد ناصر، القصص المرابي للفتيان تهادوا تحابوا، مكتبة الريام، ورقة الغلاف.

²⁸ عبد الرزاق بن سبع، قصص الأطفال في المغرب العربي، ص 88

جندي الذي كتب (سلسلة قصص الطيور والحيوان للأطفال)، التي نشرتها دار الهدى عين مليلة الجزائر.

3. قصص لكتاب غير جزائريين من حيث الأصل ثم تحصلوا على الجنسية الجزائرية ونشروا قصصا كثيرة للأطفال، ومن هؤلاء : خضر بدر، وعزة عجان، وعبد الوهاب حقي، وحسني رمضان فحلة، وغيرهم.

4. قصص لكتاب غير جزائريين نشرت قصصهم في الجزائر سواء نشر المؤسسات الوطنية مثل (قصص القرآن) لأحمد بهجت من مصر، أو نشر مؤسسات خاصة مثل (سلسلة اليمامة) لصاحبها أحمد المختار البزرة من مصر كذلك، وسلسلة (أحباب الرحمن) لدار الشهاب.

5. قصص مجهولة المؤلف مثل حكايات (الجد برهوم) مجهولة المؤلف، و(أليس في بلاد العجائب)²⁹.

وبوجه عام لا يمكن إغفال الدور الثقافي للقصة في حياة الطفل، فمع أنها نوع أدبي فهي تحمل مضمونا ثقافيا، لذا فإن الباحثين في الثقافة والشخصية يعتبرون تحليل القصص الشائعة عملية تقود إلى تحديد بعض سمات روح المجتمع الذي تشيع فيه، وتحليل قصص الأطفال بالذات يقود إلى الوقوف على سمات عديدة من تحديد ما يريده الكبار لأطفالهم³⁰، ومن هنا يجب على كاتب قصة الأطفال أن يراعي العناصر التالية في البناء الشكلي والضماني للقصة، وهذه العناصر هي:

— **العنصر النفسي** : ذلك الذي يجعل القصة تعيش في كيان الطفل، وتصبح جزءا منه، وليس من السهل تحديد هذا العنصر أو وصف تلك المادة الإيجابية المجهولة، ومثل هذه القصة هي التي تلقي بالقارئ أو السامع في نقطة خبرته.

²⁹ القصص العجيبة، أليس في بلاد العجائب، دار اليمامة للنشر والتوزيع.

³⁰ هادي نعمان، ثقافة الأطفال، عن محمود حسني إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، ص 121

— **البحث والمعرفة** : فالقصة الممتازة لا تكتفي بأن تلتقي مع الطفل في نقطة خبرته بنقطة من أحداث القصة، بل تسلمه إلى جولة معها فتوسع من آفاقه وتثري وجهة نظره وتعمق فهمه، وترتفع بروحه المعنوية.

— **اكتساب الخبرة**: ما نجده في القصة التي تعطي الطفل من خلال تعرفه الجيد على الأشخاص وأحداثها شعورا بالعلاقة والصلة بين هذه الخبرة الجزئية وبين الخبرة بمعناها الواسع، أي بين الجزء من الكون وبين الكون كله، وعندما يشعر الطفل بمثل هذه الصلة تمتد القصة داخل كيانه وتمر خلال نفسه³¹.

— مظاهر اهتمام الدولة الجزائرية بأدب الأطفال

أدرك المسؤولون مؤخرا في قطاع التربية والتعليم مدى المسؤولية والأعباء التي يجب تحملها في تكوين شخصية الطفل رجل المستقبل، وذلك بتقديم أفضل المواد وأكثرها انسجاما لنفسية الطفل وأعمقها أثرا فيه، لأن كل ما يقدم للطفل يقبله كحقائق ثابتة لا تقبل النقض، لذا عملت هذه الهيئات على الاهتمام بالأدب لأنه الأساس في البناء السليم لشخصية الطفل. ومن مظاهر هذا الاهتمام:

1. اهتمام المدارس بتأسيس المكتبات والنوادي ومجلات الحائط، ووضع البرامج الإذاعية والتلفزيونية الخاصة بالأطفال.
2. وجود المكتبات العامة في أغلب بلديات الوطن.
3. ارتفاع المستوى التعليمي والثقافي وزيادة الوعي عند الأسرة الجزائرية بأدب الطفل خاصة (القصة والمسرحية).
4. وجود دور النشر والمطابع الكثيرة التي قدمت تسهيلات كبيرة للمبدعين من أجل طبع أعمالهم وتقديمها للقراء الصغار، ومن أهمها دار الهدى بعين مليلة، الزيتونة

³¹ علي حديدي، في أدب الأطفال، عن محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، ص 135

للإعلام والنشر باتنة، المكتبة الخضراء الجزائر، دار البدر الجزائر، مكتبة الريام الجزائر.

5. اهتمام الجهات الرسمية بدعم وتشجيع الكتاب والمؤلفين في أدب الطفل، ومن أمثلة ذلك نيل الروائي أحمد خياط جائزة أحسن رواية في سنة 2008م، عن روايته للأطفال ما بين السادسة عشر والثامنة عشر سنة، تحت عنوان "مغامرات الماكر"³².

— الخاتمة

وفي الأخير يمكن القول بأن أدب الأطفال في الجزائر مازال ينمو عقب ولادة عسيرة كجنس أدبي تحت طائلة الأدب العام، وخلال هذا النمو والتطور نرصد ظاهرتين أساسيتين أولهما: الترجمة والاقتباس والمحاكاة عن الآداب الغربية، وثانيهما هي التأليف القصصي والشعري. ولكي يحقق أدب الطفل في الجزائر أهدافه ويواكب العالم المعاصر وفق أحدث الاتجاهات الأدبية العالمية، فإننا نجد أن الأسس الثابتة لتنمية هذا الأدب تكمن فيما يلي:

1. على المبدعين والباحثين تكريس مؤلفاتهم ودراساتهم في إطار هذا اللون الأدبي المستحدث، كما يجب أن يحرص المسؤولون ورجال التربية على التوسع في استثارة ميول الطفل الوجدانية والفكرية من خلال المنهج المدرس، ولو تطلب الأمر الحذف والتعديل اللازمين، كما أن اختيار الأفضل والمفيد من النصوص الأدبية للطفل هو أهم إنجاز على هذا المستوى.

2. إن الطفولة تعني المستقبل، وواجبنا بناء طفولة سليمة الجسد والروح، صحيحة الأخلاق، لها معرفة بالحاضر، مستعدة لمواجهة المستقبل، وإن أدبنا الجزائري هو أحد وسائلنا إلى تحقيق هذه الغايات، ولن يتم الازدهار المأمول

³² دومان غنية، أدب الأطفال عند محمد ناصر، ص 29

لأدب الطفل في الجزائر إلا بالمزيد من الدراسات المتعمقة حول تحليل المضمون في هذا اللون الأدبي، والدراسات الأسلوبية والدلالية في حقل نقد أدبيات الطفولة فضلا عن الدراسات الأدبية المقارنة مع الآداب العالمية في هذا المجال.

3. إن أدب الأطفال هو أحد مجالات المادة الفكرية التي ينبغي أن تقوم على ركيزتين أساسيتين أولهما التراث وثانيهما النتاج الأدبي العالمي، وإن كان هذا لا يعني تساوي هاتين الركيزتين في اعتماد البنين الفكري للناشئة عليهما، إذ لا شك أن اعتمادنا على التراث أقوى وأكبر، وكما استفاد ويستفيد الآخرون من تراثنا الأدبي واستمدوا قوتهم من زاده، فعلى أن نستفيد بما لديهم، على أننا "عندما نكون بصدد الاختيار من الآداب المترجمة علينا أن نلتزم بنفس المعايير* التي التزمنا بها ونحن ننتقي تراثنا، ويضاف إليها معيار آخر هو ألا يصحب تقديم هذه المختارات تمجيد لها وإعلاء من شأنها على حساب ما قدم من أدب الأمة³³ وتراثها، مما يوحي إلى النشء بهوان أمته وضعف الولاء لها والاعتزاز بها.

4. كشفت الدراسات أن أدب الأطفال له آثار إيجابية في تكوينهم وبناء شخصياتهم وإعدادهم ليكونوا رواد الحياة. والطفل هو الإنسان في أدق مراحل وأخطر أطواره، ومن ثم فإن الاهتمام بالجانب الوجداني من حياة الطفل يتعين أن لا يعلوه أي اهتمام آخر. وعلى أية حال فالأدب الإبداعي الموجّه للطفل يجب أن يتميز عن أدب الكبار من حيث التعددية الواضحة لطبيعة هذا اللون من الأدب، فهو يقوم بوظائف التربية الوجدانية (الوظيفة الجمالية) الوظيفة

* هناك عدة معايير ينبغي أن نضعها في اعتبارنا حتى نختار من التراث منها: - أن تكون المواد المختارة مناسبة لميول الطفل، - أن تكون النصوص المختارة ذات خصائص فنية جيدة من الأسلوب والتعبير والتصوير، مما يساعد على الارتقاء بلغة الطفل وأسلوبه وطريقة تعبيره - أن تكون القيم والأفكار المتضمنة في المادة المختارة مازالت صالحة في ضوء متغيرات العصر.

³³ أحمد حسن حنورة، أدب الأطفال، ص 41

الأخلاقية، والنمو اللغوي والانفعال الإيجابي بالأدب، عن طريق تنمية الحس الجمالي والتذوق الفني عند الطفل، واكتسابه للقيم والسلوكيات، والمهارات اللغوية والتعبيرية والميل إلى اللغة وآدابها، ومن ثمة التعبير السليم عن مطالبه وأفكاره ومشاعره³⁴.

5. لقد تزايد في العشرية الأخيرة النتاج الفكري المطبوع في مجال الطفولة، واتسم هذا الإنتاج المعرفي والأدبي بالجزارة والتنوع، إلا أنه افتقر إلى عنصرين هامين في الأدب وهما :

• التناسبية : أي مناسبة محتوى النص الأدبي من حيث الشكل والمضمون لكل قدرات الأطفال وميولهم ومستوياتهم ونموهم وبيئتهم.

• الكفاءة الفنية: وتتمثل في جمال الأسلوب وسمو الفكرة وهي التي تجعل النص يندرج تحت طائفة ما يسمى "أدب"، وإذا فقدتها وأعوزته مقوماتها انتمى إلى جنس آخر غير الأدب³⁵.

إن الاهتمام بأدب الطفل في الجزائر يجب أن يكون وليد خطة شاملة توضع للعناية بثقافة الطفل في جميع جوانبها، من خلال التنوع في أساسياته (القصة، الأناشيد، الشعر)، وأن يكون الوسيط في هذا النقل وسيطا جيدا (كتاب الطفل، المجلة، الإذاعة، التلفزيون، الإنترنت، المسرح) كما أن أدب الطفل الواعد هو الذي يحتوي على أدب يتناسب مع مستويات السن ومراحل الطفولة، وأن يصل إلى أيدي أطفالنا دون تدخل الكبار، ولن يتحقق هذا إلا إذا كان أدبا يخاطب خيال الطفل وعواطفه، يربطه بالحاضر ويمد له جسرا إلى المستقبل، وهذا هو أدب الطفل الناجح الذي يعمر طويلا، وينفع ويخدم أكثر من جيل.

قائمة المصادر والمراجع

³⁴ أحمد زلط ، أدب الطفولة ، ص 35

³⁵ أحمد حسن حنورة ، أدب الأطفال ، ص 14

1. أحمد زلط. أدب الأطفال؛ مفاهيمه وأصوله ورواده. الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1990م
2. أحمد زغب، عادل مخلو. دراسات في أدب الأطفال. من إصدارات رابطة الفكر والإبداع بالوادي.
3. أحمد حسن حنوره، أدب الأطفال. مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط1، 1989م
4. دومان غنية. "أدب الأطفال عند محمد ناصر" ماجستير مخطوط، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة ، 2007-2008م.
5. محمد العيد جلولي. النص الأدبي للأطفال في الجزائر، دراسة تاريخية فنية في فنونه وموضوعاته. دار هومة للطبع، الجزائر، ط1، 2003م
6. محمد مرتاض. قضايا أدب الأطفال، تاريخية فنية. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر
7. محمد ناصر. القصص المرئي للفتيان (تهادوا تحابوا). مكتبة الريام، الجزائر
8. محمود حسن إسماعيل. المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، ط11، 2004م
9. سميح أبو مغلي ، مصطفى محمد الفار، عبد الحافظ محمد سلامة. دراسات في أدب الأطفال. دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط2، 1993م
10. عبد الجبار البصري. "الطفولة في الشعر العراقي الحديث"، بحث مقدم لمؤتمر الأدباء العاشر، ج1، طبع وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر، 1975م
11. عبد الرزاق بن سبع. قصص الأطفال في المغرب العربي، دراسة تأصيلية تطبيقية. دكتوراه مخطوطة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، 2003-2004م

12. صالح خرفي. " ثقافة الطفل". جريدة الرأي الأردنية، العدد 7، ديسمبر 1979م
13. روكس العزيزي. "الطفل في الأدب العربي". بحث لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، طبع وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر، 1975م
14. القصص العجيبة. أليس في بلاد العجائب. دار اليمامة للنشر والتوزيع (بدون مؤلف).